ساعة فى البقيع *

للأستاذ على الطنطاوى

خرجنا اليه فى صُفرة الطَّفل ، وقد سكرت الريح ، وسجا المساء . وكان اليوم رَوْحاً ، فما تجاوزنا أزقة المدينة الضيقة الملتوية وبدا لنا سور البقيع الهائل الذى أقاموه فى وجه مدينة الموت كيلا تبتلع مدينة الحياة ... حتى هبّت الرياح لواقح ، فأنشأت سحاباً ما لبث أن اكفهر وتطخطخ وعمّ السماء ، فأظلمت الأرض واسودّت ، وعادت كئيبة تملأ النفس غماً . وكنا قد بلغنا البقيع ، فرأيته موحشاً مظلماً رهيباً :

« قاتم الأعماق خاوى المخترق »

وشممت منه رائحة الموت ، فهيبت دخوله فى هذه الأمسية ، وأزمعت العودة ، ولكن صاحبي أصرّ علىّ وشجعنى ، ثم أخذ بيدى فاذا أناوراء السور ، وإذا ساحة فسيحة ، ممتدة الجوانب ، مظلمة الأرجاء ، ساكنة سكون الموت ، ليس فيها بناء ولا قبة ولا تابوت ، كأنما لم يسمح لبشر أن ينصب فى حرم الموت معالم الحياة ، أويدنس دار البقاء بشارات الفناء ... فأغمضت عيني ، وشددت على ذراع صاحبي ، وجعلت أدنو منه لما أجد من الوحشة وأحس من الجزع ، وما عهدتنى من قبل أعرف الخوف أو أدرى ما الجزع ، فسار بى يقودنى حتى هبط بى غوراً عميقاً ، حال بيني وبين الفضاء ، وحجب عنى السور الذى كنت أراه فآنس برؤيته ، وأذكر أنها لا تزال وراءه دنيا حافلة بالنور والجمال والحياة ... فلم أعد أرى شيئاً ، وامحت من خيالى كل صورة ، وطارت من راسى كل فكرة ، إلا فكرة الفناء ، وصورة الموت ، وأحسست وأنا أهبطه أنى هابط إلى القبر ! وخيل إلىّ أن أشباح الموتى ترقص من حولى ، وتدنو منى وتمسني وتهمّ بعناقى ، فتقف كل شعرة فى جسمى ، ويزداد قلبى خفقاناً ، وتتخاذل ركبتاى حتى أهم بالسقوط ، ويطنّ فى أذنى صوت رهيب مستطيل بلق فى روعى أنه نشيد الفناء .... وكان كل مايحفّ بى مخيفاً رائعاً ، فالقبور ، والظلام الشامل ، والسكون العميق ، والسماء التى لا تطرف فيها من النجم عين ، والمكان الذى لا تبلغه نسمة من نسمات الحياة ، وجلال الموت ، كل أولئك كان يخيفنى ، ويصب فى قلبى الوحشة والفزع ... ثم صاحت بومة على سور المقبرة ... فاستمسكت بصاحبي وقلت : عد ويحك !

قال : كيف أعود وقد بدأت الزيارة ... هذا قبر عثمان !

وكأن ذكر عثمان قد رجع إلىّ نفسى ، فنظرت فلم أجد قبراً ولا شيئاً يشبه القبر ، وإنما وجدت حجارة صغيرة قد صففت على وجه الأرض ، وفرشت من حولها رمال حمراء ناعمة ، كحوض أعدّ لتزرع فيه الورود ، فقلت :

— أتهزأ بى يا ...

قال : لا والله . ولكني أقول الحق . هذا قبر عثمان

قلت : يا لسخرية القدر ! أتحرثون موضع قبر عثمان أمير المؤمنين لتزرعوا فيه الورود ؟

قال : أى ورود ؟ كل القبور هكذا ...

قلت : لعلك أخطأت القبر . اذهب فاقرأ اسمه

قال : قد طمست الأسماء ، فما عليه من اسم . ولكن ثق أنه هو . أعرفه من هذه الفضاة !

وأشار إلى غضاة قريبة منه لا أدرى كيف دخلت حرم الموت فأنست بها . وذكرنى الفضى دنيا مليئة بالصور ، مترعة بالحياة نفت عنى بعض ما أنافيه من الغربة والجزع ، فقلت :

— وكيف تعرف غيره من القبور ؟

قال : ما أعرف إلا قبور آل البيت ، وقد كنت أعرف قبر مالك فاختلط علىّ ونسيته ، ولكن يعرفه إذا شئت (العم محمد) خادم المقبرة ، وبعض الشيوخ من أهل المدينة ...

* * *

وانقطع الحديث فقد استشرى البرق وائتلق ، ورعدت السماء ، ثم هطلت بمطر بُعاق قشر وجه الأرض . وجعل فيها بُرَكاً وأنهاراً ، فلم نجد شيئاً يعصمنا من الماء نأوى إليه ، إلا هذه الغضاة وما تكاد تعصمنا ... والمطر فى الحجاز أعجب شىء رأيته : فبينا الشمس طالعة ، والأرض مُتَسعِّرة ، واليوم حَدِر عصب ، إذا السماء قد تلبدت بالغيوم ، ودوّت بالرعد ، والأمطار

* البقيع مقبرة أهل المدينة ، وقد كتب هذا الفصل فى المدينة المنورة ، وهو من فصول كتاب « الصحراء » الذى سيصدر قريباً فى وصف رحلة الوفد السورى إلى الحجاز

قد نزلت كأفواه القرب ، واليوم قد عاد قراً بارداً ، ثم لا تلبث حتى تنجلي السحب ، وتصحو السماء ، فتنظر فاذا الأرض قد بدلت غير الأرض ، وإذا السيول قد جرفت البيوت ، وخرّبت الطرق ، وطمست المعالم ، كما يطمس سطر سال عليه الماء ...

ولقد ظنناها سحابة صيف ولكنها لم تنقشع ، ولم تزدد الأمطار إلا شدّة وتهطالاً ، ولم يزدد الرعد إلا قعقعةً وقصيفاً ، حتى كأن الدنيا مجنونة ، عاودتها نوبتها ، فهي تصرخ وتقفز وتمزق ثوبها بيدها ، وتشق حنجرتها بصراخها ... بَيْدَ أني لم أكن أحفل بالبرد ولا بالمطر ، ولم أكن أذكر الخوف ولا الجزع ، ولم أكن أفكر إلا في هؤلاء الأبطال الذين فتحوا الدنيا ، وملكوا العالم ، ثم ضنوا عليهم بقبر يعرف ، أو اسم يقرأ ، أفكر في هؤلاء العظماء ...

... كم انحنت تحت أقدامهم هام الجلاميد الصُّم حتى وطئوها ، كم استكانت لهم هذه الرمال الهائلة حتى قطعوها ، كم دانت لهم البادية المهلكة حتى جابوها ، ليخرجوا منها فاتحين إلى أرض الرياض والعيون ، فيبلغوها رسالة الصحراء ، وينشروا فيها دين الصحراء !

لقد انتصروا على البادية المهلكة ، والشمس المحرقة ، والجوع القاتل ، والعطش المميت ، والعدو الجبار ، والجيش الجرّار ، ثم انتصر عليهم البقيع ، فاذا هم مستقرون في أحشائه ، وإذا هم قد ناموا فيها إلى الأبد ، فلن يذهبوا إلى الحرم ليقيموا الصلاة ، ولن يمتطوا ظهور جيادهم ليمشوا الى الجهاد ، ولن يحملوا الراية الاسلامية لينصبوها على أقصى العالم ، ولن تستقبلهم زوجاتهم وأولادهم إذا عادوا ظافرين ، بل هم لا يرون طلعة الشمس ولا يبصرون صفحة القمر ، ولا يسيرون على وجه الأرض ...

انتصرت أيها البقيع ؟ فما وفيت ولا أنصفت ... جاءك الأبطال الذين فتحوا الدنيا ، ونشروا راية العدل على الأرض ، وأضاءوا طريق الهدى للناس ، ليستريحوا في أرجائك ، ويناموا في حماك ، فحرمتهم قبراً يعرف لهم ، وحجراً تكتب عليه أسماؤهم

ما نريد منك أن تنقش على قبورهم آيات التبجيل والثناء . فإن لهم من أسمائهم الكبيرة ، غنية عن كل تبجيل وثناء (١) ، لكنا نريد ألا تنسى هذه الأسماء

سيموت الشيوخ الذين يعرفون هذه القبور ، أفيرضيك

(١) ولا نريد أن تقام لهم هذه المقامات التي ترتكب عندها أنواع المعاصي ويؤتى فيها المنكر ، فنحن من أشد الناس إنكاراً لهذا

أيها البقيع أن يأتي الجيل الجديد ، فيفتش عن هذه القبور فلا يجدها ، فيقول : هاتوا المعول ، هاتوا الأحجار ... ابنوا هنا ملعباً ! لا نجد في المدينة خيراً من هذه الساحة ، إنها لا تُترك أرض سدى ! ثم بينا هم يتقاذفون الكرة ، إذا بهم يخطئون فيتقاذفون واحدة من هذه الجماجم ...

أنسيت أيها البقيع أن كل مسلم يحسّ أنه يملك في هؤلاء الأبطال ملكاً ، وأن هذا الرفات ليس من حقك وحدك ، ولكنه حق لكل مسلم ولد أو يولد إلى يوم القيامة ... وأنك إن طمست هذه الأسماء ، حتى يجهلها المسلمون ، أسأت إلى كل المسلمين ؟

أنسيت أن أضيافك عظماء البشر ، أفتستحق العظمة هذا الاهمال الشائن ، وهذا النسيان المخزي ، أم ذنبهم أنهم لم يكونوا فرنجة ولا انكليز ؟ ! أفيكون البانتيون لأبنائه أوفى منك لأبنائك أيها البقيع؟

إنه لم ينتقص من مجدهم أنها لم تشيد لهم القبور ، ولم تنقش أسماؤهم على صفائح الحجر ، وحسبهم أنهم شيدوا مجداً وبنوا أمة وكتبوا تاريخاً ، فاذا نسي التاريخ أبطاله ومنشئيه ، فقدماً ما نسي التاريخ الأبطال ! وهل ذكر التاريخ أولئك الجنود الذين سقوا الأرض بدمائهم حتى أنبتت مجد نابليون فاقتطفه ؟.. هل ذكر أولئك القصاص الذين أهدوا إلى شكسبير قصصهم الرائعة فرواها ؟ هل ذكر أولئك الملاحين الذين غامروا بأرواحهم حتى أوصلوا كولومب إلى الساحل الجديد وأمسكوا بيده حتى نزل إليه ؟ .. ماذا كان نابليون وشكسبير وكولومب لولا أولئك الأبطال المجهولون الذين نسيهم التاريخ ؟

لا بأس أيها البقيع فان البطل الحق هو الذي لا يعرفه أحد !

* * *

وازداد الرعد قَرْقَرَةً وهَزيماً ، وعقّ البرق وتكلّح ، وأغدقت السماء وجادت ، وعصفت الريح وأعجّت (١) وجنت الدنيا جنونها ، فنظرت فاذا السيل قد جرف قبر عثمان فلم يبق له من أثر ..! فقلت : اطبقي يا سماء ، وانشقي يا أرض ، وتصدعي يا جبال ... إن من ملكوا العالم لا يجدون القبور ....

علي الطنطاوي

(١) تعمدنا اختيار هذه الألفاظ لتطابق الوصف الموصوف